هوامش

تربط حميد الفيلالي علاقة قديمة بالنحاس تعود إلى صغره. ورغم كبر سنه وتراجع الإقبال عليه، لا يزال يطرق النحاس تعبيراً عن عشقه لهذه الحرفة

يقضي يومه في ورشته بين أدواته (العربي الجديد)

حميد الفيلالي

حرفي ورث سرّ النحاس بفاس ويقاوم اندثاره

الدار البيضاء ـ **حنان النبلي**

قابضاً بيديه على صينية نُحاسية يطرقها بحركات متتالية وكأنها معزوفة موسيقية تسلب الألباب تمهيداً لنقشها وصقلها وتلميعها لتصبح بهية الصنع، يعكف الستيني حميد الفيلالي على عمله بتفانٍ ودقّة من داخل ورشته في سوق الصفّارين بمدينة فاس العتيقة وسط المغرب.

الفيلالي الذي غزا الشيب رأسه معروف بين حرفيي النحاس بمدى براعته في تشكيل وزخرفة الإبداعات النحاسية، بالإضافة إلى كونه قضى حوالي ستين عاماً في عمله، وقد اختار الاستمرار في حرفة الأجداد التقليدية رغم كل التحديات المحدقة بها.

يتفنّن هذا الصانع بأنامله الماهرة بحرفية بالغة مُبحراً في عالم النحاس، ومبدعاً تحفاً تدخل البيوت المغربية، وتجد طريقها أيضاً إلى خارج الوطن، سواء داخل المطابخ أو لاستعمالها في التزيين والديكور. يقول لـ «العربي الجديد» وهو يتفقد طلب أحد زبائنه: «في هذا السوق قضيت طفولتي وشبابي، وبين أصوات الأواني النحاسية تشكلت ذاكرتي. هنا أجد راحتي وأمتهن حرفتي بمحبة كبيرة وإخلاص. الناس يعرفونني وعملي يتحدث عني». ومع بزوغ خيوط الفجر الأولى، يخطو الفيلالي نحو ورشته محافظاً على عادته رغم كبر سنه. ويقول: «أقضي يومي في ورشتي بين أدواتي وأصحابي. معظم الوجوه هنا معروفة ومألوفة. وعلى الرغم من ظروف العمل الصعبة وغزو المنتجات الأجنبية المستوردة، فإنني لا زلت متمسكاً بحرفتي».

«الصفارين»... أنامل ماهرة

في سوق الصفارين في قلب المدينة العتيقة في مدينة فاس، تصطف محلات حرفيي النحاس التي تطرق وتصقل وتنقش الأدوات والأواني المنزلية من صينيات وأباريق وصحون وطناجر ومستلزمات طبخ ومصابيح، مشكلة فضاء سحرياً يعبق بسحر المكان، وفضاء مفتوحاً لحقبة تاريخية هامة جداً تصدح بسمفونية تنبض بالحياة يعزفها حرفيون مهرة بمنتهى الدقة والإبداع.

ويستقطب الصفارون زائرين من داخل الوطن وخارجه، لكونه يتموقع في منطقة استراتيجية في ساحة صغيرة في المدينة القديمة بفاس، بالقرب من مدرسة الصفارين الحاملة لاسم السوق وأقدم المدارس المرينية، وجامع القرويين أحد أهم المعالم التاريخية في المغرب. لم تستطع سائحة أجنبية إخفاء دهشتها بعد رؤيتها مشهد التلحيم بالنار في ساحة الصفارين المعروفة بهذا الاسم نسبة إلى اللون الأصفر اللامع للأواني النحاسية فيه، فيما صوبت أخرى كاميرتها على الفيلالي الذي كان يدق بمطرقته الحديدية على آنية نحاسية، ويحركها بشكل دائري فوق قطعة خشبية.

قضى الفيلالي سنوات طويلة من العمل في النحاس، منتهجاً الصبر والتعلم منذ أن كان عمره ثماني سنوات، وتدرب بشكل مستمر حتى اكتسب المهارة اليدوية المطلوبة ووقف على كل أسرار الحرفة، ما ساعده على مراكمة خبرة وتجربة واسعة في الطرق والنقش والخرط والتلحيم والتلميع.

باختصار

قضى الفيلالي سنوات طويلة من العمل في النحاس، منتهجاً الصبر والتعلم منذ أن كان عمره ثماني سنوات، وتدرب بشكل مستمر حتى اكتسب المهارة اليدوية المطلوبة ووقف على كل أسرار الحرفة

■■■

حرفة النحاس تقاوم الاندثار في ظل توقف عدد كبير من الحرفيين عن العمل، وعزوف الشباب عنها، بالإضافة إلى ارتفاع تكاليف إنتاج النحاسيات

■■■

حرفة النحاس تواجدت بفاس منذ القديم، وكانت الأدوات المصنوعة في المدينة تصدر من النحاس إلى الخارج كالبرتغال وبريطانيا وغيرهما

النار لتطويع النحاس

وعن مراحل إخراج الإبداعات النحاسية من العدم إلى الوجود، يوضح الفيلالي: «نبدأ أولاً بتفصيل صفائح النحاس إلى قطع وفق الأبعاد والقياسات المحددة، ثم تنقش يدوياً بحسب المطلوب، صينية أو إبريق أو طنجرة أو مقلاة، ويتم ذلك فوق قطعة خشبية تسمى القرطة باستخدام أدوات منها البيكار والنيجام». يتابع: «تعالج القطع النحاسية في محلول للحصول على اللون الأصفر البراق، ثم تضرب بالمطارق الحديدية قصد تطويعها خاصة إذا كانت سميكة، كما أن النار ضرورية في عملنا للتلحيم، وتحديداً في أواني الطبخ الكبيرة». ويستغرق إنجاز قطعة نحاسية واحدة ما بين يومين إلى خمسة أيام، بحسب حجمها والعمل المطلوب عليها. يضيف: «نصنع الصحون وطناجر الطبخ العادية والكبيرة المستخدمة في الأفراح والمناسبات، والصينيات والأباريق المستعملة في إعداد الشاي، ومقالي قلي الطعام وغيرها». ويوضح: «كانت أواني الطبخ الكبيرة سابقاً تُكترى لاستخدامها في الطهي للأفراح بشكل يومي، ما يعود علينا بنفع مادي ومدخول يشجعنا على الاستمرارية. أما الآن فقد أنيطت هذه المهمة بممولي الحفلات الذين سار يعهد إليهم بالمهمة بأكملها».

النحاس بعد الطين

لا يخفي الفيلالي أن حرفة النحاس مثلت مصدر افتخار لأهل فاس، لكونها جاءت بعد المرحلة التي كان يسود فيها الطهي بالطين. يضيف: «اتضح الآن وبعد سنوات خلت قيمة وفائدة هذا المعدن الذي كان من بين أول العناصر التي اكتشفها الإنسان وطوعها لصالحه في استخدامات عدة كما سمعت مراراً على ألسنة زبائني». ويوضح: «حظي النحاس بشعبية كبيرة سابقاً، وكان له حضور واضح في البيوت المغربية، وخصوصاً الأواني النحاسية التي تراجع الإقبال عليها في الآونة الأخيرة».

وعلى الرغم الأمل الكبير الذي يتشبث به هذا الصنايعي، فإنه لا يستطيع إنكار مخاوفه من اندثار هذه الحرفة التي استطاعت أن تصمد لعدة قرون بالمغرب.

وهو الرأي نفسه الذي يؤيده الحرفي الخمسيني عبد العالي الفاسي قائلاً إن «حرفة النحاس تقاوم الاندثار في ظل توقف عدد كبير من الحرفيين عن العمل، وعزوف الشباب عنها، بالإضافة إلى ارتفاع تكاليف إنتاج هذه النحاسيات وغياب الزبائن، وهيمنة الأواني المستوردة على السوق». ويتذكر بحنين قبل سنوات كيف كان سوق الصفارين يعج بعشرات الحرفيين الذين كانوا يصنعون ويبيعون أجود الأواني النحاسية التي تستخدم في الطعام والزينة ويأتي لاقتنائها سياح أجانب، لكنه اليوم يعيش على وقع تراجع لا يمكن أن تخطئه العين، وسطوة صناعات مستوردة من عدة دول. من جهته، يرى الباحث في علم الاجتماع والأنثروبولجيا، يوسف بوأتاون، أن حرفة النحاس تواجدت بفاس منذ القديم، وكانت الأدوات المصنوعة في المدينة من النحاس تصدر إلى الخارج كالبرتغال وبريطانيا وغيرهما. أما بالنسبة للمبادلات في النحاس بالمدينة فكانت تتم في سوقين: سوق السكاكي حيث يباع النحاس الجديد، وهو سوق يومي، أما الوحدة المباعة فيه فكانت المثقال، ثم سوق الصفارين وهو سوق يباع فيه النحاس الجديد والقديم ويقام مرة في كل أسبوع.

ويقول لـ «العربي الجديد» إن حرفة النحاس كتنظيم اجتماعي لم تكن فقط مجالاً للإنتاج، بل أيضاً لإبراز هوية الحرفي وتحقيق ذاته فردا داخل الجماعة الحرفية من جهة، وداخل المجتمع من جهة أخرى. ويشير إلى الخصوصيات التقليدية التي كانت تميزها، والتي تشكلت من ثوابتها التاريخية والثقافية المتوارثة من جيل إلى جيل. يتابع: «كان للحرف والصنائع دور كبير في تحريك الدورة الاقتصادية بالمدينة ومحيطها القريب والبعيدة، وانعكست آثارها إيجابياً على الأنشطة والمبادلات التجارية». لكن رغم هذه الخصوصيات التاريخية والقيمة الرمزية، تجد هذه الحرفة التقليدية التراثية نفسها اليوم تحت وطأة التعديلات والتغيرات الناتجة من تبني أساليب الحياة الحديثة، وفقدان الشباب أي شغف أو استعداد لسبر أغوار عالم يكتوي بنار المشقة والعناء، رغم ارتفاع أصوات الحرفيين الغيورين بضرورة صيانة هذا الموروث من الضياع وحمايته من خطر الزوال.

وأخيراً

كما لا تفعل النار

سعدية مفرح

تُنْضِجُنا تجارب العمر كما لا تفعل النار، ذلك أنّها تتجاوز قدرة النار على الإنضاج بمراحل، من دون أن نستشعر وجع اللسعة مباشرة. في هدوء تنساب التجربة بين تضاعيف الحياة فلا نكاد نراها إلا بعد أن تتركَ أثرَها الذي لا يزول، ولا يُرَى، كأثر فراشة.

نعود بعد أن نقطع شوطاً في رحلة النضوج إلى البدايات الأولى، ونحاول أن نتعرّف ما كنّا عليه. نحاول وننجح ونفشل، لكنّنا لا نملّ من تكرار المحاولة تحت وطأة الشعور بالحاجة إلى تكرار التجربة، مُسلّحين بدروسها المُبكّرة، وبعيون نحاول أن نبقيها مفتوحةً على اتساعها لترى كلّ ما لم تره في المرّة الأولى.

نعود لإعادة الاكتشاف، وللإحاطة بالتفاصيل، وللتعرّف مجدّداً إلى كلّ شيء عشناه وذقناه وسمعناه وتلمّسناه وشعرنا به. إلى الفِكَرِ والمشاعرِ والذكرياتِ، وإلى البشرِ والأمكنةِ، وإلى الأمواجِ والرياحِ، وإلى الأغنياتِ والحكاياتِ والقصائدِ والكلماتِ. وإلى الدموع، أيضاً، وطعمها المالح.

نعود إلينا.. إلى ما كنّا عليه، إلى ما تغيّر وما لم يتغيّر فينا، إلى ما ذهب وما بقي، وإلى ما كنّا نراه مع سبق الرغبة والإصرار والترصّد، والمضي حتّى النهاية، وما كنّا نتغاضى عن رؤيته ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

نعود إلى ما كنّا نقوله أو نكتبه للمراجعة بعد مرحلة النضج أو ما نعتقد أنّه النضج. ونتساءل إن كانت هناك نقطة نهاية أو محطّة أخيرة ترفع لافتة نهاية رحلة النضج فعلاً، أم أنّ الرحلة سرمديّة، وأحياناً، دائرية؟ هل نعود أحياناً إلى نقطة البدء في رحلتنا السرمدية الدائرية من دون أن نشعر أنّنا نفعلها بمنتهى الوعي، باعتبارها قراراً لا بدّ منه؟

في رحلتي الطويلة، حتّى الآن، كثير من هذه المراجعات، وخصوصاً في خضمّ الكتابة والشعر. أكتب كثيراً كما لو أنّني أنتقم لنفسي من شعوري بالغياب. أكتب لأنّ الكتابة في واحدة من معانيها، الأثيرة لديّ، هي ذاكرة مستقلّة أستطيع أن أبنيها بنفسي لنفسي من دون أن أضطر لبذل كثير من الجهد في سبيل الاحتفاظ بها. أكتب لأنّها وسيلة من وسائل البقاء على سبيل الحياة، في ذاكرة جيّدة وشغف غير متناهٍ بالحياة. وأكتب، أيضاً، لأنّ الكتابة تعينني على الاحتفاظ بذاكرتي الحقيقية. أتذكّر من خلالها الناس الذين قابلتهم وتعرّفت إليهم أو أولئك الذين عبروا سريعاً أمامي يوماً ما، أو حتّى أولئك الذين قرّروا أن يغيبوا واجتهدوا ليمحوا كلّ آثارهم قبل الرحيل. وأتذكّر كلّ العلاقات التي اشتبكت فيها سريعة أو طويلة. وأتذكّر كلّ المشاهد والشوارع والبلدان والسماوات الملبّدة بالدموع.. أتذكر دموعي بعدد الكلمات، وضحكاتي المتوارية خلف السطور أيضاً.

> نعود بعد أن نقطع شوطاً في رحلة النضوج إلى البدايات الأولى. نحاول وننجح ونفشل، لكنّنا لا نملّ من تكرار المحاولة

ولأنّني، لحسن الحظّ، أحتفظ بأرشيفي في الكتابة كاملاً تقريباً، فدائماً أعود إليه كالغريبة الضائعة التي أحسن إليها الحظّ، فجأةً، بإشارات واضحة في الطريق. أعود إليه لأفتّش بين أضابيره المُثقَلَةِ بما هو ضروري وغير ضروري، عن أفكاري القديمة التي سطّرتُها في المقالات.. رحلة طويلة من الكتابة المنشورة وغير المنشورة. بين سطورها تكمن أسرار الحكايات وظروفها، ويكمن شغفي فيها أيضاً.

أعود كلّما اجتاحني شعور بالخذلان مما أواجهه راهناً، فأجدني في مهمّة اضطرارية طارئة للفرز بين الضروري وغير الضروري من المحتويات، مهمّة للتشذيب والتهذيب والتخفيف من ترهّل الورق والكلمات، فأكتشف صعوبة المهمّة، بل واستحالتها في كلّ المفاصل. وحتّى لا أعلن فشلي فيها، أمام نفسي على الأقلّ، أتّخذ القرار السهل، والذي لطالما اتّخذته؛ التأجيل حتّى حين، أي حتّى أستعيد قدرتي على الفرز الصحيح بين ما هو ضروري وما هو غير ضروري. وربّما لن يأتي ذلك الحين المُعيّن أبداً (!)

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**